الرسالة

(روميه ٥: ١-١٠)

يا إخوةُ إذ قد بُرِّرنا بالإيمانِ فلنا سلامٌ معَ اللهِ بربِّنا يسوعَ المسيحِ* الذي به حصلَ أيضًا لنا الدُخولُ بالإيمانِ إلى هذه النعمةِ التي نحنُ فيها مُقيمون ومفتخِرون في رجاءِ مجدِ اللهِ* وليسَ هذا فقط بل أيضًا نفتخِرُ بالشدائدِ عالمينَ أن الشِدَّةَ تُنشِئُ الصبرَ* والصبرُ يُنشِئُ الإمتحانَ والإمتحانُ الرجاءَ* والرجاءُ لا يُخزي. لأنَّ محبَّةَ اللهِ قد أُفيضَت في قلوبِنا بالروحِ القدسِ الذي أُعطِيَ لنا* لأنَّ المسيحَ إذ كُنَّا ضُعفاءَ ماتَ في الأوانِ عنِ المنافقين* ولا يكادُ أحدٌ يموتُ عن بارٍ. فلعلَّ أحدًا يُقدِمُ على أن يموتَ عن صالحٍ* أمَّا اللهُ فيدلُّ على محبَّتِهِ لنا بأنَّهُ إذ كنَّا خطأةً بعدُ* ماتَ المسيحُ عنَّا. فبالأحرى كثيرًا إذ قد بُرِّرنا بدمِهِ نخلُصُ بهِ من الغضبِ* لأنَّا إذا كنَّا قد صُولِحنا مع اللهِ بموتِ ابنِهِ ونحنُ أعداءٌ فبالأحرى كثيرًا نخلُصُ بحياتِهِ ونحنُ مصالحون.

العدد ٢٠٠٣/٢٧

الأحد ٦ تموز

تذكار أبينا البار سيسوي الكبير

اللحن الثاني

إنجيل السَحَر الثالث

التدبير الخلاصي في طبيعتي المسيح

لعل أقسى ما واجهته الكنيسة في سعيها إلى إرساء عقائدها الإيمانية، في القرنين الرابع والخامس، كان النزاعات اللاهوتية التي دارت حول استيضاح أمر الطبيعتين الإلهية والإنسانية في المسيح. فبعدما نجحت الكنيسة في دحض هرطقات ناكري ألوهية المسيح وهزمت رافضي مساواة الإبن للآب في الأزلية والجوهر والكرامة، وثبّتت عقائدها الإيمانية في المجمع المسكوني الأول (٣٢٥ م.)، برز هراطقة جدد تناولوا بالتحديد مسألة الطبيعتين في المسيح، كل على هواه.

من أبرز هؤلاء نذكر أبوليناريوس أسقف اللاذقية، نسطوريوس أسقف القسطنطينية وأوطيخا رئيس دير أيوب في القسطنطينية، مع أن الثلاثة كانوا ممن رفضوا الهرطقات السابقة. لن نخوض في ثنايا النزاع حول شخص المسيح بل سنكتفي بإيراد لب ما نطق به هؤلاء من كفر، سيما وأن تعاليمهم، وإن طواها الزمان، ما زالت تتردد أصداؤها في بدع وتعاليم ينادي بها محاربو المسيح المعاصرون.

يقول أبوليناريوس أنه كما أن الإنسان العادي مكوَّن من جسد ونفس عاقلة وروح، هكذا شخص المسيح مكوّن من جسد بشري ونفس وعاقلة و«الكلمة الإلهية»، ما معناه أن الكلمة حل محل الروح واتحد بالجسد والنفس البشريين. بهذا القول يكون المسيح لم يقتبل طبيعتنا البشرية كاملة، أي لم يصر إنسانًا مثلنا، فكيف له إذًا أن يخلّص طبيعة لم يقتبلها، وما معنى الفداء إن لم يكن مصالحة الطبيعة البشريَّة كما هي مع الله؟ ناهيك عن أن اتحاد «الكلمة» بالجسد البشري اتحادًا جوهريًا ينقص من لاهوت الكلمة المولود من الآب قبل الدهور، والمساوي له في الجوهر.

أما نسطوريوس فقد قال بأن شخص يسوع الناصري ابن مريم ليس هو نفسه شخص الكلمة ابن الله، وبأن الشخصين اتحدا اتحادًا ظاهريًا وحسب، ومولود العذراء ليس سوى إنسان سكن فيه الله ليكشف ذاته للبشر من خلاله. خطورة هذا الادعاء أنه يقوّض عقيدة الفداء من أساسها،

فلا يكون عندها ابن الله هو نفسه المصلوب خلاصًا للعالم، ولا يكون الله «أحب العالم حتى بذلَ ابنهُ الوحيدَ لكي لا يهلِكَ كلُّ من يؤمِن به بل تكون لهُ الحياةُ الأبدية»، على حد تعبير يوحنا الحبيب (١٦:٣).

نأتي إلى أوطيخا القائل بطبيعة وحيدة في المسيح، زاعمًا أن طبيعة المسيح البشريَّة ذابت في ألوهيته ذوبان قطرة الخمر في المحيط. أي أن الطبيعة الإلهية استوعبت البشريَّة استيعابًا كاملاً فامتزجت الطبيعتان في واحدة هي الإلهيَّة المتجسدة. هنا أيضًا انتقاصٌ من سر الفداء الحاصل بالمسيح يسوع، وهو الذي حمل طبيعتنا بأوجاعها ليمجِّدها بالقيامة الظافرة، بعد الطاعة الكاملة على الصليب.

سنة ٤٥١ التأم المجمع المسكوني الرابع في كنيسة القديسة أوفيميا في خلقيدونيا، بالقرب من القسطنطينية، ووضع حدًا قاطعًا للهرطقات الآنفة الذكر. فقد رسم المجمع أن الطبيعتين البشريَّة كاملة والإلهية كاملة اتحدتا في شخص المسيح ابن مريم المصلوب والقائم من بين الأموات، وهو الكلمة الذي «صارَ جسدًا وحلَّ بيننا ورأينا مجده كما لوحيد من الآبِ مملوءًا نعمةً وحقًا» (يو١:١٤)، وأن اتحاد الطبيعتين صار بلا اختلاط أو تغيّر، بلا انقسام أو انفصال.

إن ما ترجوه الكنيسة من هذا التعليم ليس المقارعة اللاهوتية أو مجرد اجترار فكري لمعارف عن الله، بل إرساء الفهم القويم لعمل الله الخلاصي حفظًا لأبنائها وتثبيتًا لأقدامهم على طريق هذا الخلاص. لقد علّم آباؤنا الملهَمون أن تجسد الإله وتألّه الإنسان متلازمان في المشروع الخلاصي. فالله نزل إلى العالم لكي يصعد الإنسان إلى الملء السماوي ويصير بالنعمة إلهًا، وهذه هي الغاية التي من أجلها خُلق العالم من العدم. يقول أبينا البار مكسيموس المعترف إن مهمة اتحاد العالم المادي بالعالم الروحاني وتقديسه والارتقاء به إلى الاتحاد بالله كانت في الأساس منوطة بآدم. تمرّد آدم فسقط وسقط العالم المخلوق معه، وكبرت الهوّة بين المادي والروحاني، بين المخلوق وغير المخلوق. المهمة التي فشل في إتمامها آدم الأول آلت إلى المسيح آدم الجديد الذي حمل على منكبيه مأساة البشريَّة الكبرى ونزل من علياء سمائه ليرأب الصدع تلو الصدع حتى إتمام المصالحة بين الله وسلالة آدم العاصي.

باتخاذه الجسد البشري من حشا فتاة عذراء ألغى المسيح التناقض البشري الحاصل بين الرجل والمرأة. بقبوله صليب الظلم بطاعة فائقة وحّد الرب يسوع بين السماء مسكن الأبرار والأرض موطن المأساة الإنسانية الكبرى. للمصلوب عن يمينه يقول الرب «اليوم تكون معي في الفردوس»، ولا يكف عن ملاقاة تلاميذه طيلة وجوده على الأرض بين القيامة والصعود. وبصعوده بالجسد إلى السماء يجمع السيد بين العالم المادي المحسوس والعالم العقلي الروحاني. هكذا يجمع المسيح الكون بأسره فيه، ويقدّمه إلى الله الآب كآدم كوني جديد، موحدًا بين المخلوق وغير المخلوق. المسيح ابن الله الوحيد هو موحّد ومقدّس الكائن المخلوق، وفداؤه محطة من محطات تدبيره الخلاصي سبّبتها خطيئة آدم الأول والحقيقة التاريخية لهذا العالم الساقط الذي فيه صار التجسد. مشروع الخلاص ثابت في المشيئة الأزلية للثالوث الأقدس، وإتمام

الإنجيل

(متى ٦: ٢٢-٣٣)

قالَ الربُّ سراجُ الجسدِ العينُ. فإنْ كانتِ عينُكَ بسيطةً فجسدُك كلُّهُ يكونُ نيّرًا* وإن كانت عينُكَ شرّيرةً فجسدُك كلُّهُ يكونُ مُظْلمًا. وإذا كان النورُ الذي فيك ظلامًا فالظلامُ كم يكون* لا يستطيع أحدٌ أن يعبُدَ ربَّينِ لأنَّهُ إمَّا أن يُبغِضَ الواحِدَ ويُحِبَّ الآخَرَ أو يلازِمَ الواحِدَ ويَرْذُلَ الآخر. لا تقدرون أن تعبُدوا اللهَ والمالَ* فلهذا أقولُ لكم لا تهتمُّوا لأنفسِكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادِكم بما تلبسون* أَليست النفسُ أفضلَ مِنَ الطعامِ والجسدُ أفضل من اللباس* أنظروا إلى طيور السماء فإنَّها لا تزرعُ ولا تحصِدُ ولا تخزُنُ في الأهراءِ وأبوكم السماوي يَقوتُها. أفلستم أنتم أفضلَ منها* ومَن منكم إذا اهتمَّ يقدِرُ أنْ يَزيدَ على قامتهِ ذراعًا واحدةً* ولماذا تهتمُّونَ باللباس. اعتَبِروا زَنابقَ الحقل كيف تنمو. إنَّها لا تتعبُ ولا تغْزِلُ* وأنا أقولُ لكم إنَّ سليمانَ نفسَهُ في كلِّ مجدِهِ لم يلبَسْ كواحدةٍ منها* فإذا كانَ عشبُ الحقلِ الذي يوجَدُ اليومَ وفي غدٍ يُطرَحُ في التنوُّرِ يُلبِسهُ اللهُ هكذا أفلا يُلبِسُكم بالأحرى أنتم يا قليلي الإيمان* فلا تهتمُّوا قائلين ماذا نأكلُ أو ماذا نشربُ أو ماذا نلبَسُ* فإنَّ هذا كلَّهُ تطلُبهُ الأُمم. لأنَّ

أباكم السماويَّ يعلمُ أنَّكم تحتاجون إلى هذا كلِّه» فاطلبوا أولاً ملكوتَ اللهِ وبرَّهُ وهذا كلُّهُ يُزادُ لكم.

تأمل

إذا كان زهر الحقل الذي ليس ضروريَّ الوجود لقيام حياة البشر وهو لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس كما قال الكتاب يهتمُّ الله بهِ هكذا لأنهُ من مخلوقاتهِ فكيف يهمل الاهتمام بمصالح عبيده. فما بالنا نجهد أنفسنا ونُتعب أجسامنا ونستعمل الرياء والظلم والأقسام الكاذبة في معاملاتنا لكي نحصّل الأشياء التي نحتاج إليها ولماذا لا نطلبها من ربنا لنُعطاها بأيسر طلب ومن أفضل الجهات. ويا للعجب كيف يبذل الناس الاجتهاد في تحصيل الأمور السريعة الزوال ويفارقون الأولاد والعيال ويركبون البحار المخوفة والطرق المخطرة ويستسهلون ما ينالونه من ملاقاة الغاصبين والخاطفين واللصوص مع علمهم بأن نهاية المطلوب وغاية المقصود هي تحصيل الحاجات الضروريَّة الفانية، ولا يفعلون ذلك في طلب الذخائر الباقية. وكيف لا نفكّر بعقولنا ونذكر اننا في عالمنا هذا غرباء عن أوطاننا واننا في كل ساعةٍ على جناح السفر؟

إذا كان أحدنا صنع وليمة لبعض أصحابه يجتهد أن لا يكون مقصِّرًا الخلاص يكون بالمسيح الإله التام والإنسان التام، «حسبَ قصدِ الدهورِ الذي صنعَهُ (الله) في المسيح يسوع ربِّنا» (أف٣: ١١).

هذه كلها وإن كانت حقائق إيمانية لا ريب فيها ولا زغل، فهي تعسر على أي فهم إلا عبر صليب المسيح. إن سر تجسد الكلمة يحوي في ذاته كل رموز الكتاب وأسراره، والمعنى الخفي لكل الخليقة الحسية والعقلية. لكن من يبلغ إلى فهم سر الصليب والقبر تنجلي له كل هذه المعاني والرموز. والذي يخوض جهاده بالروح القدس إلى المستويات الأعمق بالغًا سر القيامة يفهم الغاية التي من أجلها خلق الله كل الأشياء منذ البدء، ويمسي له الاتحاد بالله عبر المسيح الصائر إنسانًا ليصير الإنسان إلهًا، اللؤلؤة التي من أجلها يُستغنى عن كل شيء (متى ٤٥:١٣).

موقف من الحرب

«طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناءَ اللهِ يُدعونَ» (متى ٩:٥).

لقد عانى العالم ويعاني من حروب وصراعات هنا وهناك، كثيرًا ما يذهب الأبرياء ضحيتها. بعض هذه الصراعات تتخذ الدين مبررًا لها، وقد يتخذ البعض المسيحية غطاء لحربه. فما هو موقف الكنيسة الأرثوذكسية من الحرب؟

رأي الكنيسة واضح ويستند على موقف الرب يسوع. عندما أتى اليهود ليقبضوا عليه في جبل الزيتون شهر بطرس سيفه للدفاع، فما كان من الرب إلا أن طلب من بطرس أن «رُدَّ سيفَكَ إلى مكانه لأنَّ كلَّ الذينَ يأخذونَ السيفَ بالسيفِ يَهلكونَ. أتظنُّ أنِّي لا أستطيع الآنَ أنْ أطلُبَ إلى أبي فيقدِّمُ لي أكثرَ من اثني عَشَرَ جيشًا من الملائكةِ» (متى ٥٢:٢٦-٥٣). موقف الرب يسوع هذا هو قمة اللاعنف. عندما رفض الرب، رأس الكنيسة، شهر السلاح للدفاع عنه، فهو حكمًا يرفض شهر السلاح لأي سبب آخر. الشعب اليهودي انقلب ضد يسوع وفضَّل باراباس لأن يسوع رفض محاربة الرومان.

لقد علّمنا الرب في العظة على الجبل: «سمعتُم أنَّهُ قيلَ عينٌ بعينٍ وسِنٌ بسِنٍّ. وأمَّا أنا فأقولُ لكم لا تُقاوموا الشَّرَّ، بلْ مَنْ لَطمَكَ على خدِّكَ الأيمنِ فحوِّلْ له الآخرَ أيضًا... سمِعتُم أنَّهُ قيلَ تُحبُّ قريبكَ وتُبغِضُ عدُوَّكَ. وأمَّا أنا فأقولُ لكم أحِبُّوا أعداءَكم. باركوا لاعِنيكم. أحسِنوا إلى مُبغِضيكم وصَلُّوا لأجلِ الذينَ يُسيئونَ إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناءَ أبيكُمُ الذي في السمواتِ» (متى ٣٨:٥-٤٥). موقف الرب هذا يُضاف إليه عشرات الآيات الإنجيلية التي ترفض العنف كفعل وكرد فعل.

قد يجيب البعض: لكن الرب يسوع قال أيضًا: «لا تظنُّوا أنِّي جئتُ لأُلقيَ سلامًا على الأرض. ما جئتُ لأُلقيَ سلامًا بل سيفًا» (متى ٣٤:١٠). من يقرأ المقطع بكامله يتضح ان كلام الرب هنا هو عن الانقسام الذي سيحدث، حتى ضمن العائلة الواحدة، بين الذي يؤمنون به والذين يرفضونه. نعم يسوع يشرِّع الحرب لكن ضد الشيطان وهذه الحرب ليست عسكرية ضد الإنسان. الحرب بالنسبة للمؤمنين هي ضد الشيطان للمحافظة على الإيمان سليمًا وجذب الذين هم خارج الإيمان، وسلاح هذه الحرب هو بشارة الإنجيل المتضمنة كلمة الرب وسلوك المؤمنين الكنسي.

الكنيسة الأولى فهمت جوهر تعليم الرب وعَمِلت به رافضة أية إمكانية

لحمل السلاح والقتل. لقد كتب الشهيد يوستينوس (+١٥٠): «يُقتل المسيحيون واحدًا تلو الآخر رافضين المشاركة في قتل الأعداء». لقد رفضت الكنيسة الأولى العنف حتى في حالة الدفاع عن النفس، وقدَّم الشهداء أنفسهم دون مقاومة إذ تسلحوا بقول الرب «لا تخافوا من الذينَ يقتلونَ الجسدَ ولكنَّ النفسَ لا يقدِرون أن يقتلوها» (متى ١٠:٢٨). القديس اغناطيوس الإنطاكي رفض محاولات منعه من الذهاب إلى روما للإستشهاد مفضلاً الموت لأجل المسيح فيكون قرباناً حياً على مذبح الرب.

بالنسبة لقديسي القرنين الثالث والرابع الذين كانوا في الجيش، كالقديسين ديمتريوس وجاورجيوس وثاودورس، فقد أعلنت الكنيسة قداستهم ليس لكونهم محاربين بل لأنهم تابوا وآمنوا واضطُهدوا بسبب إيمانهم وأُعدموا لأنهم لم ينكروا المسيح، فاعتُبروا شهداء لأنهم حاربوا الشيطان وانتصروا على فخاخه.

مع نشوء الإمبراطورية البيزنطية وصيرورتها مسيحية وكثرة حالات الالتحاق بالجيش، بقي آباء الكنيسة على الموقف المبدئي حول الحرب. قد يَقتُل الإنسان خلال الحرب، والقتل خطيئة تتطلَّب التوبة. لذا كانت الكنيسة تمنعه من المناولة لمدة ثلاث سنوات أو حتى فراش الموت. وهذا أقصى حكم تستطيع الكنيسة إطلاقه.

عندما تعرّضت الإمبراطورية لضغوط عسكرية في القرن العاشر، أصدر الإمبراطور نيكيفوروس الثاني قراراً يعتبر فيه شهيداً كل من يُقتل في المعركة، إلا أن الكنيسة رفضت هذا الأمر، وأصدرت قانوناً يحظّر فيه على الإكليريكيين الانخراط في سلك الجندية (وهو سارٍ لغاية يومنا هذا)، كما منعت كل إنسان قتل شخصًا آخر، حتى عن غير قصد، من التقدُّم إلى الكهنوت، لأن الإكليريكيين، بهذا المعنى اللاعنفي، هم صانعو سلام، وعلامة لحضور سلام الله. أما بالنسبة لموت المسيحي خلال معارك الحرب فلا يُسمَّى شهيدًا. الشهادة من وجهة النظر المسيحية هي الموت من أجل كلمة الرب. الشهيد هو الذي يموت متسلحًا بالإيمان.

موقف الكنيسة الأرثوذكسية حاليًا لا يحيد عن موقف الكنيسة الأولى والكتاب المقدَّس، وليس هناك من مبرِّر للحرب والقتل. المسيحي مدعو أن يكون من سعاة السلام: «طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناءَ اللهِ يُدعون» (متى ٥:٩).

بالنسبة لموقف الكنيسة الغربية المستند على موقف المغبوط أوغسطينوس القائل بنظرية «الحرب العادلة»، إذا وُجِدت مبررات لهذه الحرب فهي محقة. على اساس هذه النظرية بارك البابوات الحروب الصليبية وغيرها والذين يستشهدون فيها يحصلون على الجوائز السماوية.

من قرأ الكتاب المقدَّس جيدًا وأحس بمحبة الله لا يمكنه أن يقبل فكرة الحرب وما ينتج عنها من قتلى وجرحى ومعاقين، من تدمير وتشويه وأذى بالبشر والحجر. من يريد أن يبرر حربًا فلينظر إلى الرب يسوع معلَّقًا على الصليب وغافرًا للذين صلبوه.عندها فقط سوف يجد الجواب عن كل سؤال في فكره وقلبه. «بسلام إلى الرب نطلب». العلاقة مع الله والصلاة قاعدتها السلام.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb

في نظامها ويبذل الأموال ويكثر ألوان الأطعمة وأصناف الأشربة والحلويات ويصنِّف الأواني الجميلة ويستعير بعض ما يحتاج إليه لئلاَّ يراه ضيوفه بعين النقص لتقصيره عن ولائمهم التي يصنعونها فيعتريه الخجل. فكيف لا نفكر في الحضور مع المتَّكئين في وليمة الملك السماويّ حيث تجتمع الأقارب والأباعد والأمم المختلفة وأجواق الملائكة وطوائف البشر وننظر إلى شرف المكثرين من الفضيلة وسيدنا له المجد يُنبِّه أفكارنا على اهتمامه بالأشياء التي لا نحتاج إليها لنعلم من ذلك شدَّة اهتمامه بنا وإشفاقه علينا والتفاته إلى ما يعود إلى صلاحنا. فإنه يضرب لنا الأمثال تارةً بزهر الحقل وتارةً بطيور السماء وأمثال ذلك ثم يرفع عقولنا إلى طلب الباقيات ويأمرنا أن نطلبها دائماً ولا نملَّ ليكون حصولها لنا بطريق الاستحقاق.وبعد الانعطاف إليه بضمائرنا يضرب لنا مَثَلَ المرأة المتردّدة إلى قاضي الظلم والطالب من صديقه الخبزات ليلاً بالحاح والإبن الشاطر المتلف أموال أبيه وغير ذلك حتى لا تنقطع آمالنا لأنه تعالى يسرُّهُ أن نطلب منه دائماً ونتضرَّع إليه كلَّ حين كما يفعل الأب الشفوقَ مع أعزّ أولاده.

القديس

يوحنا الذهبي الفم